

في بداية التكوين كان عدد البشر في الكون الواسع محدود جدا ، ولم تتعرض البيئة المخلفات المصانع او تدمير الآلات الثقيلة الهادرة ، ورغم الهمجية والجهل اللذان وصم بهما الإنسان الأول في التعامل مع الطبيعة والمحيط البيئي إلا أن الفضاء والقشرة الأرضية البكر أعدت وجودها لمواجهة كل هفوة أو تصرف غير عقلائي ، وعندما بدأت مراحل التغيير الجوهري الأول في بلاد ما بين النهرين واضعا نهاية لتلك الصورة البائسة التي كانت تؤرخ لوجود الإنسان الحجري الأول ، الذي كان يتواجد في صورة المجموعات البسيطة المتناثرة الخائفة المنزوية في جحور الظلام خارج حالة الفعل الإنساني المتحضر ، تلك الضائعة بين محيط غابات خضراء كثيفة تعج بالكواسر أو في مدار الجبال المنغلقة على تكوينها ذات التضاريس القاسية ، أو في الساحات الأخرى حيث تتواجد المياه ، تلك الصورة التي قدمتها لنا كتب العلماء الذين استنبطوها من التنقيب 17 والحفريات في مدافن الحضارة القديمة جدا ، قبل ظهور ظاهرة تكوين التجمعات الصغيرة وصولا إلى المدن المثبتة في خريطة العالم القديم الأول قبل ما يقارب 7000 سنة قبل الميلاد- على وجه التحديد ، كان الإنسان الأول الذي تشكلت منه فيما بعد المجموعات البشرية الأولى وفق حالة التجانس الجديدة يقات في طعامه على الحبوب والأعشاب البرية ، عندما يعمد إلى حصدها بتلك الأدوات البسيطة الصخرية التي صنعها وهي في الغالب مناجل حجرية ، كانت تلك المحاولة إلى جانب الصيد هي أولى محاولات الدخول إلى التفكير العقلاني للبحث عن حالة مستقرة تقود إلى فضاء مختلف . وعندما نسجت القوى البشرية في سومر ومدن أخرى مجاورة لها في تكوين ميزابوتاميا- بلاد ما بين النهرين وبدا التحرك نحو فجر المدنية وصار الشروع في الخطوة الأولى مؤكدا ولاح شعاع المدينة الأولى في فجر التاريخ ، وكان العامل الذي صنع ذلك الحدث الفعل الضاغط علم الزراعة- AGRICULTURE وتجاربه الأولى التي تراكمت وقادت البشرية من خلال حصيلتها إلى فضاء الثقافة - CULTURE - بكل التفاصيل التي تم تثبيتها وكانت مدهشة للعقل والبصر ، التزاوج العملي بين الزراعة والثقافة أوجد فضاء الحضارة الكبير الذي ظل يتجدد رغم التخريب والدمار للغلاف البيئي بسبب الكوارث المتنوعة الزراعة دفعت الإنسان الأول لاختراع العوامل تمدها بديمومتها وفق نظ بيئي أيضا تم استحداثه والاهتداء إليه من خلال التجارب والاقتراب من التفكير بحالة الخطر غير المعروفة ، وعند تثبيت الإطار البيئي والتأكد من حالة القدرة على الولوج المحكم للأفق الجديد ، خرج الإنسان من الحالة الهمجية- تاركا كهوف الظلام - متوغلا في الأفق الجديد المعلوم معتمدا الذوق والتبصر في الاكتشاف لتلك المفردات الغريبة والجديدة ، وللمرة الأولى يستخدم الحس البشري بشكل فاعل ومؤثر إلى جانب اعتماد منهجية التفكير وإشاعة أصول جديدة في التصرف والتعامل ، بدأت الخشونة والهمجية تختفي وتحل بدلا منها الرقة والدقة في البحث لفهم الظواهر العديدة المنتشرة في الفضاء البيئي الطبيعي أصبح الشغل الشاغل للإنسان الأول الاهتمام بالإطار الحيوي ومعرفة القوانين المؤثرة فيه سلبا أو إيجابا ، نهم تلك الظواهر الكثيرة والدخول إلى حالة التفكير العملي العلمي وضع الإنسان القديم في صلب حالة جديدة في تفاصيلها الحكمة والمعرفة والتشريع ومحاكاة الخيال - الفنون- هكذا قاد فعل اختراع الزراعة وأدواتها إلى فتح كوة من التور لاكتشاف ثروة العقل ، وفي ذلك الزمن البعيد صار الحقل يجرى وينسج بيئة المدينة ، ويكشف عن خصائص جديدة تمثلت فيها صورة الإنسان وهو يتحرك في الحياة والظواهر المحيطة بها ، ولعل من الحقائق المهمة التي ارتبطت بذلك الفعل الجديد أن الزراعة أوقدت شعلة المعرفة المفتوحة وخرج من رداؤها الإنجاز الصناعي والتجاري وجميع أنماط الحياة الجديدة الأخرى والتي بحكم حركتها وحدودها العلم والذكاء والقانون والتفاعل الاجتماعي وفق حالات باهرة من الخلق والابتكار في كل شيء حتى قال أحد الحكماء أن المدينة تبدأ من كوخ الفلاح السومري ومن عطاء مزرعته لكنها لا تنمو أو تزدهر أو تشكل صورة لها قيمتها المؤثرة إلا في المدن ذات الفضاء الحضاري البيئي . أن وجود ظواهر أخرى ثم تحديدها والإثارة اليها ضمن معطيات التحولات التي رافقت حضارة تل العبد تجسدت في ظاهرة الاستقرار في الأرض وأيضا بناء المستوطنات الدائمة ذات الشكل البدائي ، ثم الإشارة الأولى التي سجلت هوامش البحث عن المعرفة والتجريب العلمي ممثلا في الاكتشافات البدائية والمهمة جدا مثل التأسيس لعلم الزراعة والبدائية في تنظيم الإنتاج وتعدد 19 أنواع الغذاء إلى جانب تدجين الحيوانات وامتلاك قطعان الماشية ومغادرة الكهوف والبدائية الفعلية في إنشاء التجمعات السكنية الهادفة إلى الاستقرار فوق أراضي السهول الزراعية ذات الأرض الخصبة والتي تتوفر لها المياه وأيضا كما يسجل في تلك المرحلة الاهتداء إلى أسلوب التصنيف للبذور ، والبدائية بزراعتها بعد أن أنفق أسلاف الإنسان السومري السنوات الطويلة في تجارب قاسية متواصلة لجمع تلك الحبوب وتصنيفها والبدائية في وضع الجداول الزمنية الزراعتها حسب المواسم الطقسية المتغيرة ، تلك المفردات شكلت ظهور الشكل الحضاري الجديد وعملت على تدعيمه بأهم الاختراعات آنذاك كما عملت على طي صفحة التخلف المتمثلة في مرحلة الصيد البدائي وحياة الكهوف و دشنت مرحلة الزراعة والاستقرار وأعلنت بداية تشكل الجانب المعرفي والاقتصادي وتأسيس

القاعدة الحضارية ذات الأبعاد المختلفة ، أن أكثر الدلائل وأهمها عقلانية تشير حتى هذا الوقت إلى حقيقة جوهرية تفيد بأن تلك التحولات التي رافقت بداية الحضارة السومرية هي التي شكلت القاعدة القوية لتأسيس حضارتنا الحالية (اسطورة بلاد ما بين النهرين الكتاب الأول الصادر عن دار خطوات للنشر والتوزيع - دمشق 2007- في المقدمة توجد معلومات وافية عن تفاصيل الحضارة الرافدية . تلك العوامل مجتمعة أدت إلى تحول كبير وهام جدا تمثل في ظهور المدن والتأسيس للظاهرة البيئية في إطارها الأول ، ووضع العلامة الأولى أيضا للمدنية البشرية ، الأمر الذي قاد بشكل حاسم إلى تبلور التكوينات الاجتماعية والدينية والسياسية والتشريع ، وكذلك اعتماد الطقوس وابتداع الأساطير ، وصولا إلى أهم أختراع سجلته تلك الحضارة البشرية ، ذلك الإنجاز الذي أحدث انقلابا جذريا في كل أشكال الحضارة اللاحقة ، قدم السومريون أيضا اختراعات واكتشافات أكثر أهمية مثل العجلة والمحراث الزراعي وأوجدوا النظام العشري وكذلك قسموا محيط الدائرة إلى (360 درجة) والسنة إلى (365) ووضعوا أسس الرياضيات ومبادئ الهندسة ورصدوا الأفلاك والنجوم ، وبنوا المعابد وأسسوا نظم الحكم والإدارة ووضعوا صياغة للشرائع الدينية والديونية في القانون وتنظيم أمور الحياة . سومر- بابل- آشور بلاد سومر هي تلك الأرض التي تكونت على مر العصور من الطمي المتواصل في النهرين الدجلة والفرات وبسبب الطقس الحار والجاف ظلت تلك السهول جرداء واقعة دوما تحت تأثير هبوب الرياح الصحراوية القاسية ، ظلت ردحا من الزمن قاحلة يندر فيها الزرع ، إلا أن الإنسان السومري القديم اكتشف سر تلك الأرض وعمد إلى شق الجداول والسواقي والقنوات وأقام بذلك نظاما للري أحيا به الأرض فتحوّلت تلك السهول الجرداء تقريبا إلى أرض خصبة صالحة للإنتاج الزراعي ، وعلى مدى الحقبة الزمنية المتابعة تغير كل شيء وصارت تلك الأرض توصف بجنة عدن كما ورد في أسفار العهد القديم ، 21 كانت تلك البدايات هي الدروس المتراكمة في مجال الحث على التغيير البيئي . ارتفعت سومر إلى ذرى جديدة من القوة السياسية والثراء الاقتصادي ، وتل أبو حبة وغيرها من المدن السومرية ، يضاف إلى ذلك أن نظام الحياة في سومر وما رافق تلك التقسيمات الإدارية والاجتماعية عزز الفكرة التي تدعو إلى عدم الفصل ما بين المادة والروح . فيما بعد حدد المفهوم الإغريقي معالم الإطار البيئي للمدينة بأنها دويلة ذات عمود مركزي تستند إليه وتبعها المدن الصغيرة والملحقات الأخرى من القرى المحيطة أو المجاورة لها ، وشهدت تلك الأطر البيئية أحداث مهمة تركت تأثيرها على مجمل التكوين البشري والاجتماعي اللاحق في مدن مثل سومر وبابل و آشور وأثينا وأسبارطة وروما وبيزنطة وقرطاجنة . عند تناول تأثير العامل البيئي الذي دفع البشرية في خطوات محسوبة نحو التشكيل والتكوين الحضاري ، تجد تلك القواصل الزمنية قد سجلت في الفترة القديمة حالة واضحة للتماثل التام بين بيئة العصر البليستوسيني - PLEISTOCENE PERIOD والعصر الجليدي ICE AGE اللذان وضع التغيير المناخي نهايتهما من خلال تدهور البيئة المنجمدة كما تحقق انحسار الثلوج التي كانت تغطي اغلب بقاع العالم وظهرت المناطق الجديدة ذات المناخ المتبدل المعتدل ، ذلك التحول البيئي كما تشير الأبحاث والدراسات العلمية على أنه حصل قبل مليون سنة ، بعد أن 22 تداخلت الفترات الجليدية الأربعة مع فترات بيئية أخرى سادها المناخ الدافئ الذي أثر في تغيير خريطة الوضع البيئي مما أتاح المجال أمام ظهور ذلك التبدل وفي العوامل المعروفة في تفاصيل الإيكولوجيا . في تفاصيل التبدل البيئي حملت الكثير من التغييرات منها الذي شمل الحيوانات مثل الماموث الصوفي ، الفيلة التي كانت تتواجد في أمريكا وعدة أنواع من الفيلة والماموث والماستودون والمارد الأرضي والنمر ذو الأسنان السيفية كما شمل التغيير هيئة الإنسان أيضا مثل الكائنات التي كانت تعرف بالإنسان الأسترالي - AUSTRALOPITHECINE - تلك التي توصف بأنها ذات مواصفات تجمع بين هيئة للإنسان والقردة والتي يعتبرها علماء الآثار بمثابة النموذج البشري الأول ، لكن التحريات الإيكولوجية كشفت عن نموذج آخر يسمى إنسان آسيا - PITHECAN THROPUS - الذي اعتبرته الدراسات العلمية أقرب الشبه من تكوين الإنسان الحالي وجدت آثاره في ، الذي اعتبرته الدراسات العلمية أقرب الشبه من تكوين الإنسان الحالي - تواجد في المناطق الشرقية من آسيا وجدت آثاره في موقعين هما - چاوه كما وجد في الصين . أفاد العلماء بأنه النموذج القريب من الإنسان حيث يوصف بأنه يسير في حركته منتصبا ، له جمجمه بشرية تدل عليها أغلب الصفات ، إلا أنه كان يتميز بوجود حواف سميكة من العظام فوق 23 العينين ، كما أن الفكين كانا بارزين للإمام ، ويرى بعض العلماء أنه في هيئة إنسان ولكنه محبف المنظر ، ولا يمكن اعتباره قردا ، جاءت تلك النظريات والأبحاث العلمية بدلائل تعزز فكرة اعتباره منتميا إلى الجنس البشري الذي ينتمي إليه الإنسان الحديث وقد أطلق عليه اسم HOME ERECTUS التمييزه عن النموذج الآخر - HOME OSAPIENS - تلك المعلومات تم تثبيتها من خلال نتائج التنقيب والحفريات التي شملت العديد من المواقع الحضارية الأولى حيث اهتدى علماء الأركيلوجيا إلى ذلك من خلال نماذج الأدوات الحجرية المصقولة التي صنعها إنسان تلك الفترة ، ثم قدمت الأبحاث نتائج أخرى

أكثر أهمية أشارت إلى وجود نوعين من الإنسان الأول في أوروبا كان يماثل في صفاته الطبيعية الإنسان الحديث والثاني هو إنسان - نيندرتال NEANDERTHAL- كما اعتبرت رسوم الكهوف مفاجأة كبيرة كشفت عن تفكير وإبداع مستمدة تفاصيلها من البيئة التي أحاطت بالإنسان القديم حيث جسد في تلك الرسوم الحيوانات التي كانت تتواجد معه مثل الثيران - الجاموس البري- الحيوانات الكاسرة المفترسة - الخيول- حيوانات أخرى تم تدجينها ، تلك الرسوم مثلت محاكاة الإنسان الأولى للفضاء البيئي الذي ينتمي إلى الفترة البعيدة بزمن يمتد ما بين 10000-25000 سنة ، ثم تأكد لهم بشكل قاطع أن تاريخ البيئة له صلة وتأثير واضح على هواجس القلق التي تنطلق في فضاء العصر الحديث المتوالدة من القضايا البيئية المعقدة والمتشابكة ، وفي رحلتهم لتتبع حلقات الزمن الماضي البعيد وصولاً إلى الحاضر لعينات وأحداث من أجزاء مختلفة من بقاع العالم ، تمكنوا من رسم صورة تبدو متكاملة عن التاريخ البيئي الذي لا ينفصل عن دراسة تاريخ التكوين الكوني والحضارة والتطور المعرفي بشكل عام - البيولوجي - الصحي- التجاري- الزراعي الثقافي السياسي ، التاريخ 24 البشري الكوني يوجد على تخوم حدود العلوم الاجتماعية - الإنسانية ، بينما توجد الجغرافيا على الحدود بين العلوم الاجتماعية والتطبيقية ، حيث تتجمع تجربة الثقافة الإنسانية التي تشكلت من حالة الإدراك البشري الذي أسس فيما بعد الوعي البيئي وتلك حقيقة يقر بها العلم المعاصر الثقافة الإنسانية كان لها القدرة المذهلة على محصلة التغيير في الطبيعة خلال الحقب الزمنية المتابعة وبدرجات متفاوتة ، ظهور الإمبراطوريات الزراعية التي نتج عنها التكوين السياسي والتجاري والصناعي والثقافي والفنون والعقيدة الدينية والعمران وتزايد الحروب . في هذه المرحلة كانت الحاجة قد دفعت تلك الإمبراطوريات إلى اكتشاف عوامل تقنية تساعد في تذليل الحواجز البيئية لكي يتضاعف الإنتاج الزراعي أولاً وبقية التكوينات التي تجسد المشهد الحضاري العام لكل مرحلة تقنية السدود- شق الأنهار والجداول- زراعة المدرجات الجنائن المعلقة في بابل أستصلاح الأراضي وتجربة البذور غير المعروفة من قبل ، إقامة البحيرات الصناعية بجوار المدن الكبيرة التخزين المياه ، (4) Environmental History - By I . SIMMONS - الفترة الصناعية الحديثة التي امتدت من العام - 1800- وحتى الوقت الحاضر ، حيث تمكنت الحضارة البشرية من التوصل إلى حزام من المدن التي تمتد بين بقاع العالم شرقاً وغرباً وجنوباً وشمالاً- وهي تمثل الفضاء الحيوي للبشرية التي تعمل ضمن تفعيل الصناعة والزراعة والاقتصاد والعلوم عامة والثقافة واكتشاف الوقود وبداية عصر الانفجار الصناعي الكبير ، واستخدام الوقود الأحفوري . - المرحلة اللاحقة- مرحلة الحسم الصناعي العالمي وظهور الإمبراطوريات الصناعية - التجارية العلمية في هذه المرحلة سادت أيضاً الحروب التي دفعت إلى السيادة الصناعية وبروز التكتلات ذات السيطرة الاستعمارية بريطانية الاتحاد السوفيتي السابق - البرتغال- أسبانيا- الولايات المتحدة الأمريكية - ألمانيا الهتلرية- في الستينات من القرن الماضي القرن العشرين بداية التاريخ الفعلي للبحث عن المنهج العلمي في وضع أفكار التوعية والإعلام البيئي والصحي من خلال الاتفاقيات العالمية التي انطلقت من ضرورة السيطرة على حالة الانفلات الصناعي المسبب الرئيس لمجمل حالات التلوث والعمل ضمن الخصائص البيئية الإقليمية التحييد الخطر ومعالجته . في بلاد ما بين النهرين مهدت الحضارة السومرية 26 العظيمة لظهور حضارتين مهمتين لهما ذات التأثير الحضاري والعلمي المعرفي العظيمة لظهور حضارتين مهمتين لهما ذات التأثير الحضاري والعلمي المعرفي ، هما حضارة- بابل و آشور اللتان وصل التنافس بينهما أشده في مجال العمارة البيئية والفنون وتحسين البيئة من خلال الزراعة والمصداق- التشجير والسدود وتطوير أنظمة الري والتوسع التحويل وزيادة الرقعة الزراعية وشق القنوات وبناء الزقورات والمعابد والجنائن المعلقة والنحت النافر ، في فترة الملك العظيم حمورابي وضعت أفكار جديدة ومهمة الأسس للإعلام البيئي والتوعية التي كانت قد أشارت إليها التشريعات السابقة والأفكار الواردة في الأساطير والملاحم كما هي الحال في ملحمة جلجامش - البحث عن نبات الخلود ، وأيضاً في التراتيل والأناشيد السومرية ، كان لها الأثر الواضح في تحضير البلاد وتطوير استصلاح الأرض والامتناع عن قطع النخيل والأشجار وأهداف أخرى جميعها تدخل في صلب موضوع الحفاظ على البيئة السليمة وصيانتها في سومر التكوين الأول للوجود اهتمت التجمعات البشرية ببناء الأكواخ من أعواد القصب والبردي لكي تناسب حالة الجفاف ودرجات الحرارة العالية وهبوب العواصف الرملية ، لم يكن ذلك من فراغ بل اعتماداً على تجربة إنسانية متراكمة وعلى خزين من حكم وقصص وتحذيرات تشكل حالة الوعي الأول للمحيط البيئي وسبل التأقلم معه ومصدر التوعية الإعلامية آنذاك ، تحولت تلك الأكواخ فيما بعد إلى مدن مهمة دخلت التاريخ من أوسع الأبواب ، وضمن أفياء الحضارة السومرية أيضاً ، استعمل السومريون الألواح الطينية للكتابة ، بعد أن تأكد لهم أنها تتحمل التأثيرات البيئية آلاف السنين . كما اخترعوا المزولة- وأيضاً ساعة مائة لمعرفة الوقت ووحدات التقدير الوزن والقياس ، كما يتم على أيديهم صناعة محاجر للحجر المرمر والصلصال ،

وايضا إبداع النقوش القادرة على الخلود رغم 27 التبدل البيئي آلاف السنين . إلى جانب تقسيم الزمان والمكان إلى وحدات ، في الظروف المعروفة بالغمر طوال فترة نموه في مياه تحرك ببطء يتراوح عمقها بين 100-150 ملليمترا كما سجلت تجارب وادي الرافدين ستة وعشرين أسلوبا لإدارة التربة وثلاثة وعشرين طريقة لإدارة المياه ، امتلك الإنسان في تلك المرحلة القدرة الكاملة على الإبداع إلى جانب عامل السيطرة والقيادة والتخطيط المنهجي ، تمثلت تلك المراحل المتابعة في استغلال الأرض والمياه إلى أقصى الحدود - اطلق على ارض بلاد ما بين النهرين فيما بعد ارض السواد لكثرة الزراعة فيها ، العالم الأمريكي ايان . سيمونز صاحب الجهد البارز في مجال البحث في مشكلة المياه العالمية ، يظهر في جميع مؤلفاته تقديرا كبيرا للحضارات التي نشأت في بلاد وا الرافدين وقد خصص فصلا كاملا في كتابه الموسوم Environ Mental History للحديث عن شبكات الري والسدود وفق المراحل الحضارية المتعاقبة ، في محاضراته التي القاها في جامعة تكساس روي قصة قديمة تتعلق ببلاد الرافدين بطلتها وصاحبة القرار فيها ملكة آشورية واجهت آنذاك جانبا من المشكلة الدائمة في حوض الرافدين عندما كانت الأنهار تفيض دون سابق إنذار فتلحق دمارا هائلا بالحياة والبيئة ، درست الملكة الأمر من جميع جوانبه تم امرت برنامجه جبره حزين بلة حملها (75 كيلومترا) (أشورية واجهت آنذاك جانبا من المشكلة الدائمة في حوض الرافدين عندما كانت الأنهار تفيض دون سابق إنذار فتلحق دار)
مائة بالحياة والبيئة ،